قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

الإستشراق في منظور إدوارد سعيد
"دراسة تحليلية نقدية"

Orientalism in the perspective of Edward Said
"Critical Analytical Study"

د.لكحل فيصل[1]*
[1]جامعة ابن خلدون، تيارت - الجزائر

معلومات المقال
تاريخ المقال:
الإرسال: 2019/10/05
المراجعة: --
القبول: 2019/11/12

الكلمات المفتاحية:
الثقافة،
الاستعمار،
الغرب،
الشرق،
السياسة،
العلم.

ملخص

إذا كان الإستشراق تعبيرا عن ما وصل إليه الفكر الغربي من دراسات حول العالم الشرقي، تاريخه وعلومه وفنونه وثقافته فإن الخطاب الإستشراقي قد لقي نقدا من طرف الكثير من المفكرين من الشرق والغرب على حد السواء، نظرا لمواقفه الذاتية التي تعبر عن النظرة الغربية، ويعتبر المفكر والناقد الأمريكي ذو الأصل العربي إدوارد وديع سعيد (1935-2003) من بين أهم الدارسين الذين اهتموا بموضوع الإستشراق، أولا من حيث دراسة تاريخ الخطاب الإستشراقي وبيان أسبابه وأهدافه وثانيا من حيث نقد بنية هذا الخطاب والكشف عن تناقضاته ونزعته الإيديولوجية في الهيمنة والسيطرة.

يحاول المقال التفكير في النظرة النقدية التي يقدمها إدوارد سعيد للخطاب الإستشراقي من خلال اختبار الحجج التي يستند عليها هذا النقد، وفحص النتائج التي خلص إليها والبدائل التي يطرحها، وكذا التساؤل حول مدى مشروعية هذا النقد من الناحية العلمية والمعرفية.

Key words:

Culture,

Colonialism,

West,

East.

Politics

Science.

Abstract

If orientalism is an expression of what Western thought has reached from the studies of the Eastern world, its history, its sciences, its arts and its culture, the Orientalist discourse has been criticized by many thinkers from the East and the West alike because of its own views that reflect the Western view.

The Arab-American thinker and critic Edward Wadie Said (1935-2003) was one of the most important scholars interested in the subject of Orientalism, first in terms of studying the history of the Oriental discourse, explaining its causes and objectives, and secondly, criticizing the structure of this discourse and revealing its contradictions and ideological tendencies in hegemony and domination.

The essay attempts to reflect on Edward Said's critical view of Oriental discourse by examining the arguments on which this criticism is based, examining its findings and the alternatives it presents, as well as the question of the legitimacy of this critique in terms of science and knowledge.

192

* Corresponding author at: Iben khaldoun University of Tiaret, ALGERIA
Email : Lakehal.faissal@gmail.com

مقدمة

يعني الإستشراق في مفهومه العام الدارسة العلمية والفكرية للتراث الشرقي، أي المعرفة بالتراث الشرقي وبعلومه وثقافته وفنونه وفلسفاته وقد كتب الكثير من المفكرين في الشرق والغرب حول تداعيات وامتدادات الخطاب الإستشراقي، ولكن من بين أكثر من اهتم بالموضوع من حيث القراءة والكتابة، نجد المفكر والناقد الأمريكي ذو الأصل العربي إدوارد وديع سعيد (1935-2003)[1]، الذي دارت جل مؤلفاته حول دراسة المنظور الغربي حول الشرق من خلال الكشف عن النظام الفكري والسياسي الذي يحكم العلاقة بين الغرب والشرق، أي ما هي نتائج مناقشة ثقافة لثقافة أخرى هل هو العداء والتعدي أم الإنصاف والموضوعية؟ وكيف تكتسب الأفكار السلطة؟ وكيف ترتقي إلى الموضوعية؟ وما هو دور المثقف؟ هل هو إثبات أفكار الثقافة التي ينتمي إليها أم الاهتمام بالثقافة الحرة والوعي النقدي المستقل؟

من خلال هذه الأسئلة يحاول إدوارد سعيد نقد مظاهر الخطاب الإستشراقي، أي الكشف عن تداعياته وامتداداته في المجال السياسي والثقافي والاقتصادي والحضاري. لكن ما هي الأسس التي اعتمدها إدوارد سعيد في نقد الخطاب الإستشراقي؟ وكيف أمكن له أن يوفق بين "أصوله الشرقية" و"ثقافته الغربية" من خلال هذا النقد؟

أولا: الإستشراق، المفهوم والتصور، الأصول والنشأة

يتبين من خلال البحث عن معنى كلمة إستشراق من الناحية اللغوية، أن "الإستشراق لغة: مشتق من كلمة وهي جهة شروق الشمس، وشرق أخذ في ناحية الشرق. والسين في كلمة الإستشراق يفيد الطلب أي طلب دراسة ما في الشرق"[2]، فهو يدل من جهة على الشرق كمكان "جهة الشرق"، ويدل من جهة أخرى على دراسة هذا المكان الجغرافي، ولأن "كلمة "الإستشراق" مشتقة من مادة "شرق"، يقال: شرقت الشمس شرقا وشروقا: إذا طلعت، ومما يسترعي الانتباه أن كلمة الإستشراق، والتي نبحث عن مفهومها اللغوي، لم ترد في المعاجم العربية المختلفة، وليس معنى عدم ورودها في المعاجم اللغوية منع الباحث من الوصول إلى لمعنى الحقيقي استنادا إلى قواعد الصرف، وعلم الاشتقاق، حيث يبدوا أن معنى إستشراق: أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم"[3]، ولذلك يقال التشريق: الأخذ في ناحية الشرق. يقال شتان بين مشرق ومغرب. وشرقوا: ذهبوا إلى الشرق أو أتوا الشرق. وكل ما طلع من المشرق فقد شرق. فالشرق إذا يرمز إلى ذلك الحيز المكاني من الكون وهو الشرق[4]، فكلمة الإستشراق ليس لها معنى لغوي متداول في المعاجم والقواميس اللغوية القديمة، لأن علم الإستشراق علم حديث ولكن هناك اشتقاقات لغوية تدل على الشرق، من حيث أنه كل الشعوب التي تسكن الجهة الشرقية من الأرض.

أما الإستشراق من الناحية الاصطلاحية، فهو "علم يدرس لغات شعوب الشرق وتراثهم وحضاراتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم"[5]، أي العلم الذي يهتم بالتراث الشرقي من حيث المعرفة والدراسة الحضارية والثقافية لهذا التراث، ويقال إن المقصود به "ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته. ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة معبرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما"[6].

وبهذا فإن الإستشراق علم غربي يدرس تاريخ الشرق، ثقافته وحضارته وعلومه، وتطورها التاريخي فهو مجال من مجالات البحث العلمي في الغرب، "ويعتبر الغرب المسيحي أن الإستشراق قد بدأ وجوده الرسمي بالقرار الذي اتخذه مجلس الكنائس في مدينة قيين الفرنسية بإنشاء سلسلة من كراسي الأستاذية "للغات العربية واليونانية والعبرية، والسريانية في باريس، وأكسفورد وبولونيا وأقينيون وسالامانكا"[7]، إن الإستشراق بدأ تاريخيا بشكل رسمي من خلال الدراسات اللاهوتية حين صدور قرار فيينا الكنسي عام 1312م وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية المختلفة.

لكن التساؤل حول البداية الفعلية لظهور أول حركة إستشراقية أو أول الدارسين الذي اهتموا بالشرق من الناحية الأكاديمية الفعلية يبين لنا أنه لا يوجد تاريخ مضبوط عن ظهور أول حركة فكرية إستشراقية أو أول دارس للإستشراق، ولكن "يرجع مؤرخي الفكر أصوله إلى انتقال بعض الرهبان إلى الأندلس عهد الحضارة الإسلامية في عظمتها ومجدها، وأخذوا يدرسون ثقافتها وترجموا الكثير من الكتب العربية في مجال الطب والرياضيات والفلسفة، والقرآن، وفي عودة هؤلاء الرهبان إلى البلاد الغربية نشروا الثقافة العربية وترجموا كتبها ونقلوها إلى بلادهم"[8]، ويرجع تنامي الظاهرة الإستشراقية كعلم خاص له مجاله وموضوعه إلى الدارسين الغربيين الذين جعلوا الغرب هدفا لدراساتهم وأبحاثهم المختلفة بداية بدراسة لغات الشرق ودياناتهم وآدابهم وعلومهم وفنونهم، وقد كان من بين أسباب تنامي ظاهرة الإستشراق هو خوف أوروبا من الإسلام "فبعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم، تنامت هيمنة الإسلام العسكرية، وازدادت في وقت لاحق هيمنته الثقافية والدينية، زيادة هائلة. فقد فتحت جيوش المسلمين أولا بلدا فارس، وسوريا، ومصر ثم تركيا ثم شمال إفريقيا، كما فتحت في القرنين الثامن والتاسع إسبانيا وجزية صقلية وأجزاء من فرنسا. وما إن حل القرنان الثالث عشر والرابع عشر حتى أصبح حكم الإسلام يمتد شرقا إلى الهند والهند الصينية والصين"[9]، كما يضاف إلى ذلك المد التاريخي العثماني الذي استمر إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر، الذي كان خطرا مهددا للحضارة المسيحية، وهذا ما شكل حافزا قويا للغرب من أجل دراسة الشرق والتعريف به والتعرف عليه من أجل إزالة الصورة المخيفة التي ارتسمت في ذهن الغرب من الشرق، وبهذا

كان الفهم الغربي المسيحي هو العقيدة التي فهم بها الغرب الشرق والإسلام.

يبين إدوارد سعيد أنه تحت العنوان العام لمعرفة الشرق، وتحت وصاية الهيمنة الغربية، من أواخر القرن الثامن عشر حتى إلى غاية برزت صورة الشرق المعقدة، كان مناسبة للدراسات الأكاديمية الغربية في مجال النظريات الاقتصادية والدراسات الاجتماعية والشخصية الثقافية وغيرها[10]، وقد كان هذا نتيجة الرحلات والأسفار التي قام بها الكثير من الدارسين الغربيين إلى الشرق على تعدد واختلاف تخصصاتهم العلمية والمعرفية، فالمستشرق يظهر فوق كل شيء باعتباره الشخص الذي يسافر: وهكذا فإن Flaubert في Dictionnaire des Idées Recepts، يعرّف المستشرق بأنه "رجل سافر كثيراً". في الواقع يبدو السفر في الشرق في القرن التاسع عشر أمراً ضرورياً لأي فنان والكثير منهم يصنع قصة عودتهم. كما قام نيرفال عام 1851 بنشر "رحلة إلى الشرق" وهي قصة الرحلة التي قام بها بنفسه قبل ما يقرب من عشر سنوات. في نهاية القرن ، قام بيار لوتي بإحياء الرحلة إلى الشرق، بما في ذلك زيارة القسطنطينية عدة مرات، والتي قام فيها برسم عدة روايات منها شبح الشرق (1892)[11].

أما عن مفهوم الإستشراق في فكر إدوارد سعيد الذي هو موضوع هذه الدراسة نجد أنه يميز بين ثلاث تعريفات وتصورات ممكنة عن الإستشراق وهي، أولا: يقول "إنني أعني بمصطلح الإستشراق عدة أمور يعتمد بعضها على بعض، وتبدو –في رأيي– مترابطة. وأما أيسر التعريفات المقبولة للإستشراق، فهو أنه مبحث أكاديمي، بل إن هذا المفهوم لا يزال مستخدما في عدد من المؤسسات الأكاديمية، فالمستشرق كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء لبحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان ذلك في مجال الأنتثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة"[12] ويفهم من هذا التعريف أن الإستشراق في المقام الأول الظاهر والمعلن من طرف الغرب ذاته، هو أن الإستشراق علم ينتمي إلى حقل الدراسات الأكاديمية العلمية والمعرفية في الغرب، أي دراسة العالم الغربي للعالم الشرقي من جوانب عديدة وفي تخصصات علمية ومعرفية متعددة.

لكن نجد في التعريف الثاني وفي مؤلف "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق" أن إدوارد سعيد يعطي "للإستشراق معنى أعم وأشمل يتصل بهذه التقاليد الأكاديمية، وهي التي يرصدها هذا الكتاب، إلى حد ما (...) فالإستشراق أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى "الشرق"، وبين ما يسمى (في معظم الأحيان) "الغرب"، وهكذا فإن عددا بالغ الكثرة من الكتاب(...) قد قبلوا التمييز الأساسي بين الشرق والغرب باعتباره نقطة انطلاقا لوضع نظريات مفصلة وإنشاء ملاحم، وكتابة روايات، وأوصاف اجتماعية ودراسات سياسية عن الشرق، وعن أهله وعاداته وعن "عقله" ومصيره"[13]، إن هذا الفهم عن الإستشراق لا يشمل البعد الأكاديمي العلمي والمعرفي الذي اتخذه الغرب شعارا له في دراسة العالم الشرقي. بل أن هذا الشعار يقوم على تمييز أساسي بين عالمين مختلفين لكل منهما ميزاته الخاصة التي تميزه عن الأخر ونتيجة هذا التمييز هو أن دراسة الشرق تختلف عن دراسة الغرب فالغربي الذي يدرس العالم الشرقي يشكل له الشرق عالما مخالفا ومختلفا عنه في الديانة والثقافة فالخطاب الإستشراقي والحالة هذه بالنسبة للغرب هو دراسة للأخر المختلف، والتي تختلف عن دراسة الذات الغربية لذاتها. أما المعنى الثالث للإستشراق "وهو معنى يستند في تعريفه إلى عناصر تاريخية ومادية أكثر مما يستند المعنيان الآخران، فإذا اعتبرنا أواخر القرن الثامن عشر نقطة عامة إلى حد بعيد استطعنا أن نناقش ونحلل الإستشراق بصفته المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق –والتعامل معه معناه التحدث عنه، واعتماد آراء معينة عنه ووصفه وتدريسه للطلاب، وتسوية الأوضاع فيه، والسيطرة عليه وباختصار بصفة الإستشراق أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه"[14]، يكشف هذا المفهوم بالإضافة إلى المفهومين السابقين أن الإستشراق لا يتوقف عند حد الدراسات الأكاديمية أو عند المنظور المختلف للثقافة والحضارة، بل عن أسلوب السيطرة والقوة والهيمنة الناتجة عن الإستشراق، أي عن الدوافع البعيدة من وراءه والتي تتعدى كونها فعلا معرفيا إلى فرض منطق السيطرة في المجال السياسي والاقتصادي والحضاري بعامة. "الإستشراق إذن هو معرفة الشرق التي تضع كل ما هو شرقي في قاعة الدرس، أو في المحكمة أو في السجن أو في الدليل المصور، بهدف الفحص الدقيق، أو الدرس، أو إصدار الأحكام، أو التأديب أو تولي الحكم فيه"[15].

ويمكن القول أن هذه المفاهيم الثلاثة حول الإستشراق تتقاطع في منظور واحد، وهو أن الإستشراق يمثل دراسة الغرب لثقافة الشرق، أو كل ما يؤسس له الخطاب الغربي حول الشرق، سواء كان في مجال المعرفة أو السياسة، لأن التتبع التاريخي لظاهرة الإستشراق يجد أن هدفها واحد على اختلاف توجهاتها وأساليبها ومناهجها.

ثانيا: المنظور النقدي للإستشراق في فكر إدوارد سعيد

إن الإستشراق كعلم مستقل له موضوعه ومنهجه ودراساته الخاصة، لم يتشكل بطريقة مباشرة، بل أنه كان نتيجة اهتمامات تاريخية، لأن لفظ الإستشراق بدأ كصفة للعالم الشرقي من ناحية اللغة وكموضوع للعالم الشرقي (دراسة الشرق كموضوع) على مستوى الفكر، ثم انتقل إلى أن أصبح واقعا يتصوره ويتخيله الغرب يكتسب صفة الواقعية أو مجموعة الصفات التي أطلقها الغرب عن العالم الشرقي لذلك يبين إدوارد سعيد أن "نوع اللغة والفكر والرؤية الذي أطلقت عليه صفة الإستشراق، يعتبر بتعميم شديد شكلا من أشكال الواقعية الراديكالية، فكل من يستعمل الإستشراق – وهو اعتياد التعامل مع المسائل والأشياء والصفات والأصقاع التي تعتبر شرقية – يقوم بتحديد وتسمية وتثبيت والإشارة إلى ما يتحدث عنه أو يفكر فيه بكلمة واحدة أو بعبارة واحدة، يرى

194

بعدها أنها قد اتخذت طابع الواقع أو أصبحت الواقع نفسه"[16]، هكذا ينتقل الإستشراق من مستوى اللغة والفكر إلى مستوى الواقع والفعل، وهو تلك الصورة التي ثبتها الغرب في مجال الدراسات الأكاديمية حول العالم الشرقي، حيث تم تنميط الثقافة الشرقية في قالب واحد وفي صورة واحدة على الرغم من الاختلاف والتعدد الموجود في العالم الشرقي من لغات وعادات وتقاليد وديانات.

إن ما ينكره إدوارد سعيد هو "إطلاق صفة "الشرقي" على كل ما يرى فيه أبناء الغرب اختلافا عن الحضارة الغربية، والتذرع بهذه الصفة أو التسمية، للقول بما يجافي الحقيقة والواقع من نسبة خصائص جوهرية أو عناصر إنسانية تمثل "جوهر" الشرق باعتباره نقيضا للغرب، وهو ما يسمى بالنظرة "الجوهرية" أو المذهب الجوهري (essentialism) وإدوارد سعيد يأتي بالأدلة القاطعة على أن هذه النظرة لا تقوم على أسس علمية، لأنها لا تعمل حسابا للتاريخ والتطور وغيرهما من العوامل التي تتحكم في حياة الإنسان"[17] تصور لنا هذه النزعة الجوهرانية أولا وجود عالمين يبدوان كقطبين منفصلين، وثانيا أن لكل عالم وجوده الخاص، وتبعا لذلك تختلف مستوى الثقافة والقيم والحضارة بين العالمين، وأن هذا الاختلاف يقوم على مبادئ ثابتة ودعائم مطلقة. غير أن هذه النظرة تقوم من أساسها على توهم وجود شرق خالص وغرب خالص لكل منهما خصائصه المطلقة التي تختلف عن الأخر، يبدى إدوارد سعيد موقف الرفض للنزعة الجوهرانية Essentialist، "فالشرق والغرب مجرد مقولات وليست كيانات جوهرية، وبالتالي فإن "كلمات مثل "الشرق" و"الغرب" لا تتوافق مع واقع ثابت يوجد كحقيقة طبيعية. فوق هذا أشير إلى أن جميع هذه التعيينات الجغرافية هي مزيج عجيب من التجريبي والخيالي"[18]، إن التصور الميتافيزيقي الذي يقيم ثوابت مطلقة وتصورات كليانية وشاملة حول فكرة "الشرق" و"الغرب" من منطلق مكاني جغرافي يتجاهل حقيقة مهمة جدا وهي أن هذا التوصيف مجرد تسمية لفظية لا تمثل حقيقة بذاتها، لأنها تقوم على التصورات والتمثلات التجريبية والخيالية، وهكذا لا يمكن أن يستوعب توصيف "الشرق" بهذا المفهوم الإستشراقي الثابت التنوع الثقافي والحضاري والسياسي، وحتى الاختلاف الديني في كل ما يقصدونه بتوصيف "الشرق".

وهكذا فالتاريخ البشري ليس حقيقة جامدة وثابتة تصدق على الأفراد، بل هو عملية ديناميكية من التغير، فلا توجد منذ الأزل مجتمعات ودول ومناطق ذات سمات وخصائص معينة، بل أن التطور التاريخي للبشر هو الذي جعلهم ينظرون للمجتمع والتاريخ بمنظور عصورهم التي عاشوها، أو بمنطق الفكر الذي كان سائدا في أحقاب المراحل التاريخية المختلفة، وبالتالي "الشرق ليس حقيقة جامدة، بل أن الشرق فكرة لها تاريخ وتقاليد، لأن كل شعب يصنع تاريخه الخاص[19]، إن إدوار سعيد يأخذ بنظرة فيكو Giovanni (1668-1744) Battista Vico التي ترى أن البشر هم صانعوا التاريخ وأن الصراع الاجتماعي والتاريخي بينهم هو الذي يصنع ذلك التاريخ لأن "البشر هم الذين صنعوا ويصنعون "المحليات" و"المناطق"، والقطاعات الجغرافية من أمثال "الشرق" و"الغرب"، فكل منهما كيان جغرافي ثقافي ناهيك بكونه كيانا تاريخيا، وهكذا فإن الشرق شأنه في هذا شأن الغرب نفسه يمثل فكرة لها تاريخ وتقاليد فكرية، وصور بلاغية، ومفردات جعلتها واقعا له حضوره الخاص في الغرب وأمام الغرب"[20]، "الشرق" ليس إنتاجا غربيا خالصا، كما يراد له من طرف الخطاب الإستشراقي، لأن الشرق مثله مثل الغرب، وجود له كيانه الخاص، وثقافته الخاصة، وهويته التي يتميز بها تاريخيا، ولكن الخطاب الإستشراقي جعل من الشرق بالنسبة للعالم الغربي، عالم آخر متمايز ومختلف فتكون والحالة هذه المعرفة التي يكونها الغربي عن الشرق مختلفة تماما عن المعرفة التي يكونها الشرقي عن الغرب، لأن التصور الغربي عن الشرق خطاب مؤسس له مؤسساته الخاصة وإيديولوجياته التي تفكر له.

لكن الفكر الإستشراقي ليس خطابا علميا موضوعيا حول الشرق، يتخذ من الشرق موضوعا للدراسة بعيدا عن الافتراضات والأحكام المسبقة المترسبة في بنية العقل الغربي، بقدر ما هو خطاب القوة والهيمنة الثقافية والسياسية، يقول إدوارد سعيد "وأنا أعتقد شخصيا أن القيمة الكبرى للإستشراق تكمن في كونه دليلا على السيطرة الأوروبية الأمريكية على الشرق أكثر من كونه "خطابا" صادقا حول الشرق (وهو ما يزعمه الإستشراق في صورته الأكاديمية أو البحثية) "[21]، وهنا يمكن أن نميز بين تصورين للإستشراق الإستشراق كموضوع للبحث الأكاديمي له موضوعه ومنهجه الخاص والإستشراق كأداة ووسيلة لتحقيق أهداف ثقافية وسياسية واقتصادية معينة.

لقد كانت العلاقة بين الغرب والشرق في بدايتها، قبل أن يتشكل الخطاب الإستشراقي في صيغته الأكاديمية والعلمية علاقة اكتشاف وفضول لمعرفة حضارة الشرق، ومن ثم انتشرت البحوث والترجمات حول تاريخ ثقافته وحضارته. ولكن "بعد حملة بونابرت المصرية أصبحت أوروبا تتعرف على الشرق بطريقة أكثر علمية"[22]. فقد نصب المستشرق الغربي نفسه في العصر الحديث أنه هو من ينقذ الشرق من العتمة والغربة التي هو فيها فأعاد بعث ما فقد من لغاته ومن أخلاقه وفكره بوضع المعاجم والتفاسير ولترجمة العلوم القديمة له مثل البلاغة واللغة والتاريخ، لكن الشرق بهذا المفهوم تغير تغيرا جديدا عن ما كان عليه في أصله، وتم تحديثه، وهذا الفعل التحديثي من طرف الغرب كان يعمل على إعادة تشكيل الشرق وخلقه من جديد.

إن الخطاب الإستشراقي بدأ أول الأمر كخطاب ثقافي أكاديمي ولكن تبين مع الزمن أن هذا الخطاب يحمل في طياته أهداف سياسية معينة، لأن "الاهتمام الأوروبي، ثم الاهتمام الأمريكي، بالشرق كان اهتماما سياسيا وفق بعض

الروايات التاريخية الواضحة له، (...) ولكن الثقافة هي التي أوجدت ذلك الاهتمام وجعلت تمارس تأثيرها جنبا إلى جنب مع الدوافع العقلانية الأخرى، من سياسية واقتصادية وعسكرية"[23]. ولهذا فالخطاب الإستشراقي خطاب مزدوج يحمل في ذاته البعد المعرفي العلمي الأكاديمي والبعد السياسي الإيديولوجي في الآن نفسه. ولهذا ينظر إلى الإستشراق على أنه ذو بعدين متوازنين البعد المعرفي العلمي والبعد السياسي، فـ"الإستشراق حركة علمية لها في عالم السياسة التجريبية نظير هو مراكمة الشرق وحيازته استعماريا من قبل أوروبا. ولهذا لم يكن الشرق محاور أوروبا، بل "آخر"ـها الصمت"[24]، إن الإستشراق والحالة هذه تمثيل مباشر للخطاب الغربي حول الشرق، وليس تعبيرا عن العلاقة بين الشرق والغرب، لأن الغرب هو الفاعل الذي أنتج الخطاب، بينما الشرق هو المنفعل الذي يدور حوله محور الخطاب. ومنه فإن "العلاقة بين الغرب والشرق هي علاقة السلطة والهيمنة"[25]. غير أن إدوارد سعيد وإن كان يفرق بين هذين التصورين للخطاب الإستشراقي، إلا أن الهدف الأول له هو تحليل بنية الخطاب الإستشراقي وفهم مواطن القوة والتماسك فيه، ثم كخطوة ثانية العمل على تفكيك هذا الخطاب من خلال الكشف أن أغراضه وأهدافه الإيديولوجية الكامنة وراءه.

إن الفكرة التي قام عليها الخطاب الإستشراقي هو تقديم صورة عن هذا العالم الأخر المختلف إلى العالم الغربي، ومعرفة التراث الشرقي من أجل أن يقدم كصورة للغرب يفهم من خلالها تاريخ الإنسانية وبالتالي فالشرق موضوع الدراسة يقدم في الخطاب الإستشراقي كموضوع للنص، وليس كحركة وفعالية إلا ما يريد هذا الخطاب أن يموضعه فيه، بحكم "أن الذي يجرى تداوله بين الناس في "الخطاب" الثقافي وفي المبادلات داخل ثقافة من الثقافات ليس الحقيقة بل صورة تمثيلة، (...) اللغة نفسها نظام بالغ التنظيم والتشفير (...) ومن ثم فلا نستطيع إرجاع قيمة وفعالية وقوة شيء مكتوب عن الشرق، مهما بدا من صدقه، إلى الشرق (...) وهكذا فإن الإستشراق برمته يقع خارج الشرق وبعيدا عنه"[26]، فهو لا يمثل نفسه بنفسه –أي الشرق- بل هو يتمثل في فكر آخر وفي مخيلة أخرى، وانطلاقا من عقل آخر ذو بنية معرفية وتاريخية مختلفة، ولهذا فلا يمكن القول أن الإستشراق يمثل الشرق التمثيل الفعلي الذي يعكس حقيقة الشرق ذاتها.

يمكن أن نلمس هذه النظرة عند كل من نابليون ودي ليسبس على أن "الشرق (مثل الأسد الشرس) شيء يمكنهما مواجهته والتعامل معه إلى حد ما، لأن النصوص خلقت ذلك الشرق، لكنه كان شرقا صامتا ومتاحا لتحقيق المشروعات الأوروبية التي يشارك فيها السكان المحليون دون أن يشرفوا عليها إشرافا مباشرا كما كان هذا الشرق عاجزا عن مقاومة المشروعات أو الصور أو الأوصاف التي ابتكرت له"[27]، تؤكد دعوة نابليون وليسبس أن السبب الذي جعل العالم الغربي يحقق طموحاته وأهدافه الثقافية والحضارية في العالم الشرقي هو أن الشرق ذاته يعاني من التأخر في مجال العلم والثقافة والحضارة، وأن العالم الشرقي من تلقاء ذاته يستجيب لهذه الطموحات والأهداف لتحقيق التقدم الذي وصل إليه الغرب، وكما زعم المستشرق ماكدونالد وجيب أن العالم الشرقي وفق هذا عاجز على مواجهة ما يراد له من طرف الغرب، لأنه لم يكن يملك الحيلة الحضارية التي تمكنه من المواجهة والرفض أو القبول وهكذا وجد نفسه منخرطا في مشروعات لم يخترها بنفسه وفي ثقافات دخيلة لا تعكس هويته وقيمه، فأصبح الإستشراق هو الممثل الرسمي للعالم الشرقي في العالم الغربي والشرقي على حد السواء. وكما يبين إدوارد سعيد أن المستشرق شاتوبريان يرى أن الشرقيين "لا يعرفون شيئا عن الحرية وليست لديهم ذرة من اللياقة فالقوة إلههم. وعندما تمر عليهم فترات طويلة لا يرون فيها فاتحين يقيمون العدل السماوي ويكتسون مظهر الجنود الذين لا قائد لهم، والمواطنين الذين لا مشروع لهم والأسرة التي لا أب لها"[28]. وقد كان اعتقادهم أن الفتح الغربي للشرق لم يكن غزوا بل تحريرا وخلاصا في إطار مهمتهم المسيحية في إعادة إحياء عالم ميت.

وهكذا نجد في الخطاب الإستشراقي نوعا من التكريس لفلسفة الغيرية، ولخطاب الاغتراب الذي تتكلم فيه الذات الغربية عن ذات عربية، لأن العلاقة شرق- شرق، بمعنى علاقة العالم الشرقي بذاته التاريخية علاقة اغتراب، فهو لا يتعرف عن ذاته إلا من خلال الأخر "الغرب"، وبالتالي يصبح مستلب الوعي الثقافي الذاتي ومسلوب الحرية والهوية الذاتية التي تعبر عنه وعن تاريخيه.

إن هناك الكثير من السلبيات التي يمكن تسجيلها على الخطاب الإستشراقي، و"تعتبر جوانب قصور الإستشراق، (...) هي نفسها جوانب القصور الناجمة عن تجاهل إنسانية ثقافة أخرى أو شعب آخر أو منطقة جغرافية ما، واختزالها إلى "جوهر" ما، وتجريدها من صفتها. ولكن الإستشراق قد خطا خطوة أبعد من ذلك فهو يرى أن الشرق يقتصر وجوده على ما "يشاهد"، بل إنه ظل ثابتا في الزمان والمكان بالنسبة للغرب"[29]، لأن الخطاب الإستشراقي بهذا الشكل حل محل ثقافة أخرى ووضع نفسه في موقع الممثل الرسمي لمجتمعات وشعوب لا ينتمي إليها من حيث الأصل، أو من حيث الثقافة والتاريخ وكثيرا ما مثل الشرق في المخيال الغربي الإستشراقي الموضوع الثابت والجامد الذي يمكن تطويعه بأي طريقة أو منهجية كانت، لكي يكون طيعا وقابلا للدراسة العلمية والمعرفية، ومن أجل إحكام النفوذ السياسي عليه، ولكن "المستشرق كان يظل دائما خارج الشرق، ويظل الشرق مهما يبلغ نجاح المستشرق في تيسير فهمه في الظاهر، خارج نطاق الغرب"[30]، وبالتالي فالخطأ الذي وقع فيه الخطاب الإستشراقي في هذا الجانب هو أنه نظرا إلى الشرق كموضوع للدراسة، يخضع لما يمكن أن تخضع له الموضوعات التي يمكن دراستها بمناهج العلم والمعرفة، ومثلما ما تكشف أعمال لامارتين ونيرڤال وفلوبير فإن العالم الشرقي لا يمثل بالنسبة للغرب مكان جغرافيا بعينه بقدر ما يمثل موضوع

196

للدراسة. ولكن الحقيقة أن الشرق تاريخ ومجتمع وحركة وتغير في الزمان والمكان، وأكثر من ذلك يمثل الإنسان الشرقي الذي له خصوصيته الإنسانية القيمة مثله مثل الغرب.

إن صورة الشرق في الدراسات الغربية ليست من وحي الخيال، بل هي ناتجة عن فرض خطاب القوة والسلطة أي إنتاج معرفة حول الشرق. ولكن تكون الشرق في المخيال الغربي أجبر الشرقي على التشكل في القالب المفروض من خلال المناهج العلمية والدراسات ما بعد الكولونيالية، وابتداء من القرنين التاسع عشر والقرن العشرين تحول الإستشراق من خطاب علمي إلى مؤسسة إمبريالية نتيجة التوسع الأوروبي في الأسواق والموارد والمستعمرات. ومنذ انعقاد مؤتمر بأندونغ 1955 حصلت معظم دول العالم الثالث على استقلالها السياسي من الاستعمار الغربي الحديث، وبدأت تتشكل في موازين القوى الدولية، قوى جديدة تعتمد منطق جديد للهيمنة يختلف عن الاستعمار والاحتلال، فقد برزت الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي كقوتين إمبرياليتين للسيطرة على مختلف دول العالم، وخاصة الشعوب السائرة في طريق النمو ووسيلتها في ذلك هو فرض منطق القوة المعرفية والثقافية والاقتصادية كطريقة جديدة في السيطرة على دول العالم الشرقي.

لكن الإستشراق الحديث لا يختلف عن الإستشراق القديم بشكل مطلق، فهو لم يتخلص من النظرة الذاتية التي شكلت تاريخه، فهي السمة الجوهرية له، والشيء الجديد الذي ربما أضفاه الإستشراق الحديث والمعاصر هو توسيع دائرة الهيمنة والسلطة الغربية على شعوب العالم الشرقي، لأن المستشرق الذي يدرس الشرق لا يمكنه أن يتخلص من ذاتيته وأرائه وأحكامه، فهو يمثل فكره الأوروبي ومصالح دولته التي ينتمي إليها، ويخضع إلى الظروف والأوضاع الواقعية التي تحرك نوازع الكتابة فيه، وتبعا لذلك لا يوجد خطاب إستشراقي بريء، أو خالي من التأثيرات التي تلتبس بالباحث المستشرق، بل وحتى الباحث الأكاديمي الذي يزعم إنجاز بحث موضوعي حول الشرق، يتأثر بهذه المؤثرات ويخضع لها في الكثير من الأحيان، "أي أنه يتصدى للشرق باعتباره أوروبيا وأمريكيا أولا، وباعتباره فردا ثانيا وكونه أوروبيا أو أمريكيا في مثل هذا الموقف لا يمكن أن يكون حقيقة "خامدة""[31]، فهو انعكاس لظروف ذاتية ولأوضاع معينة، ولذلك فلا عجب أن يصل الغرب إلى ما وصل إليه من الهيمنة والنفوذ على الشرق جراء توظيف الخطاب الإستشراقي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في بسط النفوذ والهيمنة على دول عالم الشرق.

وكما يرى مترجم كتاب "الإستشراق" إلى العربية أن إدوارد سعيد يعمل في هذا الصدد على "تدعيم ما يسمى بالنقد الثقافي، وكيف مهد كتابه الإستشراق لما أصبح يسمى نقد الاستعمار (colonial critique) أو ما يسميه إدوارد سعيد نقد ما بعد الاستعمار postcolonial criticism))"[32]، والمقصود هو نقد مظاهر تلك الهيمنة السياسية والاقتصادية التي فرضتها الدول الغربية على العالم، لأن التحرر من الاستعمار الغربي الحديث لم يكن يعني نهاية عهد الوصاية على العالم الشرقي، لأن الإيديولوجية الاستعمارية قد خلفت أثارها على الشعوب التي استعمرتها، من خلال التحكم المعرفي والعلمي في شعوب العالم الشرقي، وإخضاعها بمنطق السيطرة والهيمنة التقنية والتكنولوجية التي مثلت سلاحا من نوع جديد يعمل إدوارد سعيد على نقد الخطاب الغربي المهيمن إيديولوجيا من خلال الكشف عن العلاقة الغير متكافئة بين المعرفة والقوة أو الخطاب والسلطة.

لكن كيف يتحول الخطاب إلى سلطة في منظور إدوارد سعيد؟ هل هو المنظور نفسه الذي يتكلم فيه مشال فوكو Michel Foucault (1926-1984) عن سلطة الخطاب؟ وهل يعني أنه مهتم بتركيبة السلطة أكثر منه بتأثيرها في الشعوب المرؤوسة؟ يقول إدوارد سعيد "اعتقد أني كنت محدودا جدا في ما حاولت فعله. أي أني حاولت النظر إلى الطريقة التي تتشكل بها رؤية معينة للشرق وكيف تستخدم لإخضاع الشرق خلال حقبة الإمبريالية ابتداء من غزو نابليون لمصر، (...) هذا نقد منصف، لأني أعتقد أن أحد الأمور التي أخطأ فيها فوكو هو أنه كتب دائما من وجهة نظر السلطة، وهذا غريب، فمعظم الناس ينظرون إليه على أنه متمرد (...) يمكنك القول أن ميشيل فوكو يتحدث عن السلطة من منطلق أن السلطة تفوز دائما"[33]. إن الشيء الذي ربما إستفاده إدوارد سعيد من مشال فوكو هو طريقته في معالجة مشكلة السلطة وقضية ارتباطها بالقوة والهيمنة، فقد "استخدم إدوارد سعيد فكرة الخطاب عند فوكو لدراسة موضوع الاستشراف من ناحية سياسية واجتماعية وعسكرية وأيديولوجية وعلمية"[34]. ولكن في قضية الإستشراق الأمر يختلف، لأن إدوارد سعيد لا يؤسس خطاب حول السلطة والهيمنة المرتبطة به بقدر ما يعمل على كشف قدرة الخطاب على التشكل في ثوب السلطة وتمثيل نفسه فيها، يقول سعيد "فإنني أختلف مع مشال فوكو وأنا أدين لعمله بدين كبير في أنني أعتقد اعتقادا راسخا أن كل مؤلف فرد يكسب عمله طابعه الذي يحدد طابع النص ولولا ذلك لأصبحت لدينا مجموعة جماعية مجهولة المؤلف من النصوص التي تمثل الإستشراق، أو غيره من التشكيلات الحافلة بالاستطرادات. ونرجع الوحدة التي تتميز بها مجموعة النصوص الكثيرة التي أقوم بتحليلها، من زاوية معينة إلى كونها كثيرا ما تشير إلى بعضها البعض، فما الإستشراق، في نهاية الأمر إلا نظام للاستشهاد بالكتابات والمؤلفين"[35]، إن مشال فوكو يعتقد أنه ليست هناك قيمة تذكر للنص المفرد أو المؤلف الفرد، لكن إدوارد سعيد وجد أن الواقع العملي في حالة الإستشراق يقول بغير ذلك، وبالتالي فهدف سعيد هو تحليل النصوص من خلال قراءات عميقة تكشف عن الجدلية الدائرة بين النص أو المؤلف الفرد من ناحية وبين التشكيل الجماعي المركب الذي يشارك فيه عمل المؤلف. يدرس مشال فوكو آثار الخطاب من خلال الظروف الاجتماعية والآثار السياسية التي يحتوي عليها، وفي حالة الإستشراق يدرس إدوارد سعيد

النتائج السياسية المترتبة عن الخطاب الإستشراقي الذي يدعي العلمية والموضوعية[36]، وبالتالي لا ينظر سعيد إلى الخطاب -مثلما ما فعل مشال فوكو- وكأنه جوهر مستقل عن الواقع له حياته الخاصة، بل ينظر إليه بالمنظور التاريخي الواقعي المتزامن مع السلطة وأدوات الهيمنة والاستيلاء التي شكلته.

ثالثا: نظرة تقييمية نقدية

يبدو أن دراسة إدوارد سعيد للخطاب الإستشراقي تتداخل فيها الكثير من المفاهيم والمعارف التاريخية والثقافية والفلسفية والأدبية، وغيرها، ولذلك لا يمكن إنكار أن اللغة التي كتب بها إدوارد سعيد لغة عصية عن الفهم، إذ لا نكاد أن نقبض عن المعنى المقصود في كل مرة يتكلم فيها النص، لأن النصوص ذات مكنونات وكينونات لا تظهر بقدر ما تخفي وتستر، وتبعا لها لا يمكن أن نحدد الحقيقة التي يسترها هذا النص أو التي يزعم أنه يقولها.

إن نصوص إدوارد سعيد تخاطب الغرب بلغته وبمنهجه العلمي الحديث، وهذا ما جعل النص الإدواردي حي على الدوام، لأنه مغري على القراءة سواء بالنسبة للغرب أو العرب. يقول سعيد "أنا شرقي يرد كتابة على المستشرقين الذين ازدهروا لفترة طويلة بسبب صمتنا. أكتب لهم، من خلال تفكيك بنية مادتهم العلمية، من خلال الكشف عن تحيزها الماورائي تاريخي، والمؤسساتي، والإيديولوجي والمعادي للتجريبية. أخيرا، أشعر أني أكتب لأبناء وطني وزملائي حول أمور ذات اهتمام مشترك"[37]، إن الكتابة في موضوع الإستشراق تحقق هدفين من جهة كتابة للغرب المستشرق، من خلال بيان نظرتهم الغير موضوعية حول الشرق والكشف عن تداعياتها وامتداداتها الإيديولوجية، ومن جهة أخرى كتابة تعبر عن الهوية والأصل والتاريخ المشترك الذي يتقاسمه أبناء العالم الشرقي.

يحاول إدوارد سعيد في مؤلف "تعقيبات على الإستشراق" أن يصحح سوء الفهم الذي لحق فكره حول تصوره عن الإستشراق، أو إعادة تصحيح التأويلات الخاطئة له. وفكرة النقد "تنهض على جزأين يناقشان معا تارة، وعلى نحو منفصل طورا. الجزء الأول هو الزعم المنسوب إليَّ، والقائل بأن ظاهرة الإستشراق هي مجاز مجتزئ، أو رمز مصغر للغرب بأسره ويتوجب في الواقع اعتبار الظاهرة ممثلة للغرب بأسره ومادام الأمر كذلك، كما تقول الحجة، فإن الغرب بأسره عدو للشعوب العربية والإسلامية"[38]، الخطاب الإستشراقي لا يمثل كل الغرب، وبالتالي لا يمكن القول أن العالم الغربي بأسره يتبنى الخطاب الإستشراقي، أو أنه ينظر إلى الشرق بالمنظور نفسه الذي أسس له الخطاب الإستشراقي، ولكن مع هذا لا يمكن إنكار أن ما وصل العالم الغربي عن الشرق قد ساهم فيه الإستشراق بجزء كبير، بيد أنه لا يعني لسبب ذاته أن الغرب كله عدو للشعوب العربية والإسلامية من منطلق المواقف الإيديولوجية والسياسية للخطاب الإستشراقي.

أما الجزء الثاني من الحجة فحواه "أن الغرب والإستشراق المفترسين قد انتهكا حرمة الإسلام والعرب. ولا حظوا أن "الإستشراق" و"الغرب" اختلطا ببعضهما اختلاط الحابل بالنابل ومادام الأمر هكذا، فإن وجود الإستشراق والمستشرقين يؤخذ كذريعة للقول بنقيضه المكافئ والمقابل: إن الإسلام تام، وهو "الحل الوحيد" وإلى ما لانهاية وبكلمة موجزة، أن تقوم بنقد الإستشراق كما فعلت في الكتاب يعني أن تقف في الصف المساند للإسلاموية وللأصولية الإسلامية"[39]، يرفض سعيد هذه الحجة ويعتبر أن دراسة الخطاب الإستشراقي لا تهدف إلى تأسيس خطاب إسلامي جديد، أو الدفاع عن الإسلام ضد الإستشراق، إن صورة الإسلام التي يمثلها إدوارد ليست هي الدفاع عن خطاب قاطع وعقائد دوغمائية. وبالتالي ليس بدافع أن أصول إدوارد فلسطينية نجده ينقد الخطاب الإستشراقي، لأن نظرته إلى القضية الفلسطينية تختلف عن نظرة غيره من الفلسطينيين أنفسهم[40]، وبالتالي يمكن القول أن فكر إدوارد سعيد لا يعكس التعصب إلى نزعة هوياتية أو مرجعية دينية أو لغوية معينة.

لكن نجد أن فكر إدوارد سعيد قد تعرض إلى نقد أخر من طرف الغربيين أنفسهم الذين يتبنون الخطاب الإستشراقي وفي هذا يقول "ولكن في وسط الأكاديميين الأمريكيين والبريطانيين، ممن يتصفون بلون صارم وحاسم وعنيد، تعرض الإستشراق -ومعه جميع أعمالي الأخرى في الواقع - إلى هجمات رافضة بسبب إنسيّته Humanism "المترسبة" وتقلباته النظرية ومعالجته غير الكافية، وربما العاطفية للتوسيط Agency المطروح"[41]، ولكن هذا النقد يجب فهمه على أنه ردة فعل من طرف الفكر الغربي ضد فكر سعيد، فقد بين سعيد أن الإستشراق خطاب ذي أوجه. ومكن العطب فيه هو النظرة الأحادية التي تنظر إلى الآخر-الشرقي- بمنطق الآخر المختلف.

يمكن أن نستنتج هنا أن إدوارد سعيد لا يتبنى أحكاما مطلقة في نقده للخطاب الإستشراقي، لأن هناك من المفكرين الغرب من درس الشرق/ العرب وكان معجبا بتراثهم وعاشقا له، ومثال ذلك يذكر لنا إدوارد سعيد الفكر "جان جينيه" من خلال مؤلفيه "الستائر" و"الأسير العاشق"[42]، لأن الدراسة التي يقدمها جان جينيه لا تنحاز إلى المواقف الإيديولوجية القبلية، بل تراعي الجانب الموضوعي وتصف واقع وحقيقة الشرق كما هو، وهذا ما يبين موضوعية دراسة إدوارد سعيد ذاتها التي لا تنظر إلى الإستشراق بمنظور واحد، كما أنها لا تسقط أفكار قبلية أو مسبقة في محاولة فهم/ نقد الخطاب الإستشراقي.

كما أن كتابة إدوارد سعيد في موضوع الإستشراق تصحيح للصورة الخاطئة التي نشرها الغرب عن العالم الشرقي "النقطة الأخيرة التي أود طرحها بخصوص "الإستشراق" هي أني ما كنت لأكتب ذلك الكتاب، في رأيي لولا احتسابي سياسيا على قضية نضال. قضية النضال الوطني الفلسطيني، والقومي العربي، مهمة جدا لذلك الكتاب. لم يكتب "الإستشراق"

ليكون سردا تجريديا لعملية تاريخية بل ليكون تحررا من الصور النمطية على ناسي، سواء أعربا كانوا أم مسلمين أم فلسطينيين"[43]. لأنه مهما يكن فإن إدوارد سعيد ينتمي إلى أصول شرقية لا يمكن إنكارها، فهي التي حركت فيه نوازع الكتابة في الموضوع ولكن ليس بهدف تسفيه أو تكذيب الخطاب الإستشراقي بدوافع عاطفية أو نوازع ذاتية، لأن الإستشراق مهما قيل عنه إلا أنه يبقى حقلا معرفي وعلمي، لابد من الرد عليه أو نقده بنفس الأسلوب والطريقة المعرفية والعلمية اللازمة، "لكن في إطار أوسع بكثير من أن يتدنى "الإستشراق" وظروفه إلى مستوى الشتيمة. أعترف بأني منحاز ككاتب، لكن أهم ما في الكتاب هو أسلوب التحليل، الإطار النظري الذي يتم ضمنه الوصول إلى الإستنتجات- لا النتائج نفسها، التي لا يجوز تبسيطها إلى درجة القول إن هذا المستشرق كان عدونا، وذاك ضدنا، وذاك أحبنا أو كرهنا، يبدو أننا كمجتمع عربي ما زلنا رهائن تلك الصيغ فنحن لم نستطع تطوير شيء يسمح لنا بالتحرر من الماضي المظلم"[44].

يعلمنا إدوارد سعيد أن كل دراسة لموضوع الإستشراق أو للفكر الغربي بعامة لابد أن تتجاوز النظرة السلبية التي تبقى حبيسة الماضي التاريخي الذي كان يحكم العلاقة بين العالمين الشرق- الغرب، فهو لا يزعم "أن الإستشراق شر أو مائع أو ذو صورة واحدة في عمل كل مستشرق، لكني أقول وأؤكد أن رابطة المستشرقين لها تاريخ محدد في التواطؤ مع السلطة الإمبريالية ومن العبث أن ننكر الصلة بينهما"[45]، إن دراسته تكشف عن الوجه الإيديولوجي والهيمنة الإمبريالية التي كرسها الخطاب الإستشراقي، وليس تبني الرد الانفعالي العاطفي الغير مؤسس بشكل علمي رصين، ومن ثم فإن الردود الانفعالية التي تقوم على العاطفة المفرطة من طرف الشرق ضد الغرب لا يمكن عدها ردا حقيقيا يرقى إلى المستوى العلمي الأكاديمي الذي وصل إليه الفكر الغربي من دراسات حول الشرق. وهكذا يمكن القول أن انحياز إدوارد سعيد إلى العالم الشرقي ليس من منظور عاطفي، بل من منظور علمي وأكاديمي.

خاتمة

إن دراسة إدوارد سعيد لموضوع الإستشراق لا تقف عند حدود النص ذاته محاولا فهم النص من داخله أو البحث عن اللاَّمُفكَر فيه في النص، بل هو يبحث في علاقة النص بما هو خارج عنه، أي موقعه من الخارج، عن ماذا يتكلم؟ موضوعه؟ ولمن يكتب؟ وما هو السبب الكامن وراء الكتابة حوله؟ وما هي الفكرة التي يريد ترسيخها؟ إن "الإستشراق يفترض الموقع الخارجي للمستشرق شاعرا كان أو باحثا فهو يجعل الشرق يتكلم ويصف الشرق، ويشرح أسراره الغامضة للغرب ومن أجل الغرب. والشرق لا يعنيه إلا باعتباره السبب الأول لما يقوله"[46]، لأن دراسة الخطاب الإستشراقي ترتكز على معرفة علاقة هذا الخطاب بما يتكلم عنه وبما يقوله (موضوعه) وبالتالي فإن إدوارد سعيد ينظر إلى أثر النص الإستشراقي وعلاقته بالزمن والتاريخ، أكثر من الوقوف عند حدود النص ذاته في وحدته وانسجامه الداخلي. كما أنه لا يشتغل على النصوص الإستشراقية "بحثا عن مدى صدقها أو قرابتها من الواقع، أو حتى إمكانية البحث عن حكم معياري نجعله مرجعا في تقييم هذه النصوص، وإنما يتعالى عليها متقصيا عن وحدتها التي مكنتها من هذا الصمود المعرفي"[47] ينقل إدوارد سعيد الإستشراق من مستوى النص (مجالات الدراسة) إلى مستوى الخطاب الذي يحكم بنية هذا النص، و"النص المكتوب (...) ما هو بالأصل إلا نتيجة تعاقد آني ما بين الكاتب والوسيلة. وبعدئذ يمكن استنساخه لمصلحة العالم ووفقا للشروط المفروضة من العالم وفيه، ومهما كان حجم الاعتراض الذي يبديه الكاتب، أو الكاتبة، حيال ذيوع الكاتب وشهرته، فإن النص ما أن يصبح أكثر من نسخة واحدة حتى يصبح عمل الكاتب في قلب العالم وخارج إطار تحكم الكاتب به"[48]، ولأن "النص" حينما يستقل عن مؤلفه يتشكل في شكل "خطاب" ويغترب عن أصله ويؤول على حسب ما يراه القارئ وليس على حسب ما أردا له المؤلف.

وصفوة القول أن "الرد على الإستشراق ليس "الاستغراب"[49]، أو اقتراح بديل عن الإستشراق أو مشروع فكري يناهض الإستشراق، بل تحليل النظام الفكري الذي يحكمه ومناقشة فكرة علاقة الغرب بالشرق من المنظور الإستشراقي، "أما الإستشراق المعكوس، فهناك أعمال حوله في شتى أنحاء العالم الإسلامي "وباء الغرب"، أي أن الغرب مصدر كل الأشرار في العالم. إنه نوع أدبي معروف، وأجده متعبا ومملا جدا بشكل عام. وقد فصلت نفسي عنه وعما أسميه بالأهلانية (nativism)"[50]. لا يمكن أن تكون دراسة الغرب وتفكيك بنية العقل الغربي بديلا لمواجهة الخطاب الغربي حول الشرق، لأن أي خطاب يمكن أن يتأسس حول العالم الشرقي في الغرب أو حول العالم الغربي في الشرق، سيؤول إلى النتيجة نفسها التي وصل إليها الخطاب الإستشراقي.

وهكذا يمكن القول أن فشل الخطاب الإستشراقي هو فشل منهجي، أي فشل إنساني وأخلاقي أكثر من كونه فشل فكري، لأن إدوارد سعيد لا يحاكم هذا الخطاب بمنظور القول بفشل الغرب عن معرفة الشرق، أو القول أن هناك شرق "جوهر" وحقيقي يختلف عن ذلك الذي يصوره لنا الغرب، من منطلق القول بالاختلاف بين العالمين، وكما يؤكد سعيد أكثر من مرة في مؤلفاته ومحاوراته على أن أطروحته لا تزعم القول بتأكيد وجود ما يسمى "الشرق الخالص" أو "الشرق الحقيقي" بل أن أطروحته تفهم على العكس من ذلك، لأنها تهدف بالأساس إلى أن التصورات التي تؤسس على الشرق لم تفهم أن الشرق في حد ذاته مفهوم مختلف وبالتالي فكل ما يمكن تأسيسه من مفاهيم وتصورات ومعرفة حوله، يخضع بالضرورة إلى هذا الاختلاف.

إن البديل الذي يمكن من خلاله مواجهة تداعيات وامتدادات الإستشراق لا يكمن في تأسيس خطاب مضاد، بل في تبني "ثقافة المقاومة"، مقاومة العقل للجهل والجمود والقيود التي تكبله وتفعيل ملكاته النقدية، لأنه لا سبيل لمواجهة الهيمنة

الغربية إلا من خلال تبني "ثقافة المقاومة" كإستراتيجية فكرية واجتماعية تدافع عن الإنسان وليس عن "الشرق" أو "الغرب" ككيانات مفهومية.

❖ تضارب المصالح

يعلن المؤلف أنه ليس لديه تضارب في المصالح.

الهوامش

[1]- إدوارد وديع سعيد (1935-2003) هو مفكر وناقد أمريكي من أصل عربي، ولد في القدس في فلسطين وهو أستاذ الأدب الإنجليزي والأدب المقارن في جامعة كولومبيا نيويورك (الولايات المتحدة) لمدة 40 عاما (1963-2003)، التحق في مطلع حياته بالمدارس الابتدائية والثانوية في القدس وفي القاهرة ثم تخصص في الأدب الإنجليزي في جامعة برنستون الأمريكية عام 1957، وحصل على الماجيستير من جامعة هارفارد في عام 1960، وعلى الدكتوراه من الجامعة نفسها عام 1964. وبدأت حياته العلمية أستاذا ينتقل بين الجامعات الأمريكية الكبرى حتى استقر به المقام في جامعة كولومبيا أستاذا للغة الإنجليزية وآدابها وللأدب المقارن. وقد كان أول كتاب له بعنوان "جوزيف كونراد وخرافة السيرة الذاتية"، ويرجع اهتمام إدوار سعيد بالفلسفة كان من وراء نظريته "التكاملية" إلى الأدب، وهي التي سوف تؤدي إلى ترسيخ مذهبه في النقد الثقافي الذي يربط بين الأدب باعتباره ظاهرة إنسانية تقوم على الإبداع (والتخيل) وبين حقائق الواقع والتاريخ والمجتمع والفكر الإنساني. وفي مؤلفه الثاني "البدايات: المقصد والمنهج" الذي ركز فيه على فكرة أن البداية عسيرة في أي منهج علمي، وهي قضية بالغة الأهمية في نظره عاد إليها في مقدمة مؤلفه حول الإستشراق التي تعتبر استكمالا لما جاء في ذلك الكتاب.

أما الأعمال التي أصدرها إدوارد سعيد فهي على التوالي والتسلسل كما يلي: جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية (1966) بدايات: القصد والمنهج (1975)، الإستشراق (1978)، مسألة فلسطين (1979)، الأدب والمجتمع (1980) تغطية الإسلام (1981)، العالم النص، الناقد (1983)، بعد السماء الأخيرة: حيوات فلسطينية (1986)، لوم الضحية (1988)، متتاليات موسيقية (1991)، الثقافة والإمبريالية (1993) سياسة التجريد (1994) تمثيلات المثقف (1994) غزة - أريحا سلام أميريكي (1990) السلام والسخط (1995). للإطلاع أنظر كل من:

- Hamza Asshidi, L'Orientalisme d'Edward Said : r_ecit et modalit_es d'un transf ert culturel entre les _Etats-Unis et la France, Histoire. 2015. P7.

- إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، ترجمة، محمد عناني، طبعة (1995) مزيدة، دار رؤية للنشر والتوزيع ط1، 2006 ص20 ص21، ص22.

- إدوارد سعيد، "تعقيبات على الإستشراق"، ترجمة وتحرير: صبحي حديدي المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1996 ص158.

[2] - فاروق عمر فوزي، "الإستشراق والتاريخ الإسلامي- القرون الإسلامية الأولى"، دار الأهلية، ط1، 1998، ص30.

[3] - أحمد عبد الحليم السايح، "الإستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي" الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1996، ص10.

[4] - صالح محمد حسن الأشرف، "الإستشراق مفهومه وآثاره"، دار الألوكة 2016، ص12.

[5] - فاروق عمر فوزي، "الإستشراق والتاريخ الإسلامي- القرون الإسلامية الأولى"، المرجع نفسه، ص30.

[6] - صالح محمد حسن الأشرف، "الإستشراق مفهومه وآثاره"، المرجع نفسه ص13.

[7]- إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، مصدر سابق ص110.

[8]- إن هناك من يقول أن الإستشراق اللاهوتي بدأ بشكل رسمي حين صدور قرار فيينا الكنسي عام 1312م وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية، ولكن لم يظهر مفهوم الإستشراق في أوروبا إلا مع نهاية القرن الثامن عشر، فقد ظهر أولا في إنجلترا عام 1779م، وفي فرنسا عام 1799م، كما أدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838م. أنظر: - صالح محمد حسن الأشرف "الإستشراق مفهومه وآثاره"، مرجع سابق، ص-14 ص15.

[9]- إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، مصدر سابق ص124.

[10] - Monia ayachi , l'orientalisme théorie de l'invention de l'occident et stratagèmes l'éclipse de l'orient, mémoire présenté comme exigence par tielle de maitrise en sociologie université du que Québec a Montréal, 2015. P110.

[11] - غالبًا ما تتشابك موضوعات الاستشراق الأدبي مع الجمالية الرومانسية: الحنين إلى الحضارات المفقودة والحلم بالخيال، والسفر، وتغيير المناظر الطبيعية. وتوضح القصيدة Ozymandias، للشاعر البريطاني Shelley، الذي نشر عام 1818، هذه المواضيع المختلفة. بالنسبة إلى المستشرقين البريطانيين، يمتد الشرق إلى جزر الهند، وهو نموذج خيالي من الوجود البريطاني في الهند منذ القرن السابع عشر. أنظر المقال الموجود على شبكة النات على الرابط التالي: www. lesclesdumoyenorient.com/L-Orientalisme-au-XIXeme-siecle.html،

Clémentine Kruse, L'orientalisme au xixème siècle, 2012 أطلع عليه يوم: 25/12/2018. سا12:37.

[12]- إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، مصدر سابق ص44.

[13]- المصدر نفسه، ص45.

[14]- إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، مصدر سابق ص46.

[15]- المصدر نفسه، ص97.

[16]- المصدر نفسه، ص142.

[17]- إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، مصدر سابق ص19.

[18]- إدوارد سعيد، "تعقيبات على الإستشراق"، مصدر سابق، ص102.

[19]- Edward w.Said, L'orientalisme, l orient créé par l occident, traduit de lamèricain par catherine malamoud, 2003, p17.

[20]- إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، مصدر سابق ص48.

[21]- المصدر نفسه، ص50.

[22]- Edward w.Said, L'orientalisme, l orient créé par l occident, p35.

[23]- إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، مصدر سابق ص58.

[24]- إدوارد سعيد، "تعقيبات على الإستشراق"، مصدر سابق، ص39.

[25]- Edward w.Said, L'orientalisme, l orient créé par l occident , p18.

[26]- إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، مصدر سابق ص71.

[27]- المصدر نفسه، ص173.

[28]- المصدر نفسه، ص279.

[29]- المصدر نفسه، ص129.

[30]- المصدر نفسه، ص343.

[31]- المصدر نفسه، ص57.

[32]- المصدر نفسه، ص29.

[33]- إدوارد سعيد، "السلطة والسياسة والثقافة"، تقديم: غاوري فسواناثان ترجمة، نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب بيروت، ط1، باللغة العربية، 2008 ص264.

[34]- Monia ayachi , l'orientalisme théorie de l'invention de l'occident et stratagèmes l'éclipse de l'orient, p28.

[35]- إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، مصدر سابق ص73.

[36]- Hamza Asshidi, L'Orientalisme d'Edward Said. P10.

[37]- إدوارد سعيد، "السلطة والسياسة والثقافة"، مصدر سابق، ص62.

[38]- إدوارد سعيد، "تعقيبات على الإستشراق"، مصدر سابق، ص101.

[39]- المصدر نفسه، ص102.

[40]- نجد أن إدوارد سعيد في ما يخص القضية الفلسطينية يتبنى موقفا مختلفا عن الفلسطينيين أنفسهم نجده يقول: "لقد عبرت عن جميع أنواع التحفظات على نزعة أبناء البلد Nativism اللامبالية وعلى النزعة العسكرية الكفاحية ضمن الإجماع الوطني واقترحت كبديل عن النزعتين إلقاء نظرة نقدية على البيئة العربية والتاريخ الفلسطيني، والحقائق الإسرائيلية، مع الاستنتاج الصريح بأن

التسوية التفاوضية بين جماعتي المعاناة أي العرب واليهود، هي وحدها الكفيلة بتأمين وقفة في حرب لا تنتهي"، أنظر: إدوارد سعيد، "تعقيبات على الإستشراق" مصدر سابق ص112.

[41]- إدوارد سعيد، "تعقيبات على الإستشراق"، مصدر سابق، ص114.

[42]- يتسأل إدوارد سعيد حول دراسات المستشرق جان جينيه وعن حقيقتها هل هي تعبر عن إستشراق معكوس أو متفجر؟ لأن جان جينييه لم يسمح لعشقه للعرب أن يكون دليله إليهم فقط، بل يبدو أيضا أنه لم يطمح أيضا في أي موقع مميز عندما كان في حضرتهم أو عندما كتب عنهم (خلافا لبعض "الأباء البيض" الكرماء). ويبين إدوارد سعيد من جهة أخرى أن المرء لا يشعر أبدا أن جينييه حاول أن يصير من أبناء البلد، أو أن يتلبس شخصية أخرى غير شخصيته هو ذاته. وليس من دليل على الإطلاق أنه اعتمد على معارف أو أفكار كولونيالية شائعة يسترشد بها، ولا هو لجأ، فيما قال أو كتب، إلى كليشيهات عن العادات العربية أو العقلية العربية أو الماضي القبلي، أنظر: - إدوارد سعيد، "عن الأسلوب المتأخر، موسيقى وأدب عكس التيار"، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الآداب بيروت، ط1، 2015، ص150.

[43]- إدوارد سعيد، "السلطة والسياسة والثقافة"، مصدر سابق، ص405.

[44]- إدوارد سعيد، "السلطة والسياسة والثقافة"، مصدر سابق، ص47.

[45]- إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، مصدر سابق ص518.

[46]- وقد كتب كارل ماركس في كتاب "شهر برومير الثامن عشر ولويس بونابرث"، يقول "إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ولابد أن يمثلهم أحد"، إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، مصدر سابق، ص70.

[47]- ربوح البشير، "إدوارد سعيد والفلسفة"، مجلة تبيين للدراسات الفكرية والثقافية، العدد 15، 2016، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ص27.

[48]- إدوارد سعيد، "العالم والنص والناقد"، تر: عبد الكريم محفوظ، منشورات إتحاد الكتاب العرب، (د-ط)، 2000 ص38.

[49]- إدوارد سعيد، "الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق"، مصدر سابق ص497.

[50]- إدوارد سعيد، "السلطة والسياسة والثقافة"، مصدر سابق، ص245.

المصادر والمراجع

1- إدوارد سعيد، 2006، الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة، محمد عناني، ط1، دار رؤية للنشر والتوزيع.

2- إدوارد سعيد، 2008، السلطة والسياسة والثقافة، ترجمة، نائلة قلقيلي حجازي، ط1، بيروت، دار الآداب.

3- إدوارد سعيد، 2000، العالم والنص والناقد، ترجمة، عبد الكريم محفوظ، (د-ط)، منشورات إتحاد الكتاب العرب.

4- إدوارد سعيد، 1996، تعقيبات على الإستشراق، ترجمة، صبحي حديدي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

5- إدوارد سعيد، 2015، عن الأسلوب المتأخر، موسيقى وأدب عكس التيار، ترجمة، فواز طرابلسي، ط1، بيروت، دار الآداب.

6- أحمد عبد الحليم السايح، 1996، الإستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، ط1، الدار المصرية اللبنانية.

7- فاروق عمر فوزي، 1998، الإستشراق والتاريخ الإسلامي- القرون الإسلامية الأولى، ط1، دار الأهلية.

8- ربوح البشير، 2016، إدوارد سعيد والفلسفة، مجلة تبيين للدراسات الفكرية والثقافية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد 15.

9-Edward w.Said, 2003 , L'orientalisme, l'orient créé par l occident, traduit de lamèricain par catherine malamoud.

10- Hamza Asshidi, 2015 L'Orientalisme d'Edward Said: r_ecit et modalit_ es d'un transf ert culturel entre les _Etats-Unis et la France, Histoire.

11- Monia ayachi , 2015, l'orientalisme théorie de l'invention de l'occident et stratagèmes l'éclipse de l'orient, mémoire présenté comme exigence par tielle de maitrise en sociologie université du que Québec a Montréal.

12- Clémentine Kruse, 2012, L'orientalisme au xixèmesiècle,www.lesclesdumoyenorient.com/L-Orientalisme-au-XIXeme-siecle.html.

أطلع عليه يوم: 2018/12/25، سا12:37.

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

المؤلف لكحل فيصل (السنة 2020)،الإستشراق في منظور إدوارد سعيد "دراسة تحليلية نقدية"، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 12، العدد 01، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، ص ص : 192-201